الرحمة في الابتلاء بالضراء في ضوء السنة النبوية

إعداد:
د. خديجة إبراهيم إزعريين
الأستاذة المساعدة بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد..

فإن المتأمل في الكون ليدرك أن رحمة الله عامة بجميع خلقه، وتتجلى فيما حباهم به من نعم لا تحصى ولا تعد، حتى خشي جبريل عليه السلام أن يكون لفرعون، وهو من أئمة الكفر، نصيب منها، فعن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ البَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ»[1]. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في وصفه لشمول رحمة الله تعالى: «لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بهذه الرحمة الواحدة، كامتلاء البحر بمائه، والجو بهوائه، وما في خلاله من ضد ذلك، فهو مقتضى قوله: «سبقت رحمتي غضبي». فالمسبوق لا بد لاحق وإن أبطأ، وفيه حكمة لا تناقضها الرحمة، فهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمى بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز»[2]. فكثير من الناس يغيب عنهم ما في أنواع البلاء التي تصيب

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة يونس، ٥/ ١٣٨/ رقم ٣١٠٧.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة، ص ٣٧١.

الفرد أو الأمة من حكمة ورحمة، ويعتبرون أن كل من أصيب بشيء منها قد حلّ عليه غضب من الله تعالى. وهذا مخالف لما أخبر به سيد الخلق ﷺ حين قال: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1]. فإذا وسعت رحمة الله عز وجل الكفار على كفرهم وتعنتهم، فرحمته ﷻ بهذه الأمة، التي جعلها خير الأمم، أعظم وأجلّ.

فأين تتجلى مظاهر الخيرية والرحمة في الابتلاء بالضّراء؟

ذلك ما سأجيب عنه -بإذن الله تعالى- في هذا البحث وفق الخطة التالية:

تمهيد، وفيه تعريف بالألفاظ الواردة في عنوان البحث.

المبحث الأول: الرحمة الربانية في ابتلاء الأمة.

المطلب الأول: الابتلاء بالفتن العامة.

المطلب الثاني: الابتلاء بالجهاد.

المطلب الثالث: الابتلاء بالكوارث.

المبحث الثاني: الرحمة الربانية في ابتلاء الفرد.

المطلب الأول: الابتلاء في النفس والأهل.

المطلب الثاني: الابتلاء في المال.

الخاتمة، وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير ٤/٢٢٩٥/ رقم ٢٩٩٩.

تمهيد

إن الكلام عن الرحمة في الابتلاء بالضّراء في ضوء السنة النبوية يقتضي التعريف بهذه الألفاظ من خلال كتب أهل اللغة وغيرهم، على سبيل الإيجاز، لأن المقام لا يسمح بالاستفاضة.

١. تعريف الرحمة:

قال في الصحاح: «الرَحْمَةُ: الرِّقَّةُ والتعطُّفُ. والمرحمةُ مثلهُ. وقد رَحِمْتُهُ وترَحَّمْتُ عليه. وتراحَمَ القوم: رَحِمَ بعضُهم بعضًا»[(١)].

وقال ابن القيم: «إن الرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هى الرحمة الحقيقية. فأرحم الناس بك من شق عليك فى إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك»[(٢)].

٢. تعريف الابتلاء:

قال في اللسان: «بلا: بَلَوْتُ الرجلَ بَلْوًا وبَلاءً وابْتَلَيْته: اخْتَبَرْته، وبَلاهُ يَبْلُوه بَلْوًا إذَا جَرَّبَه واخْتَبَره... وابْتَلاه اللَّهُ: امْتَحَنَه، وَالاسْمُ البَلْوَى والبِلْوَةُ والبِلْيَةُ والبَلِيَّةُ والبَلاءُ، وبُلِيَ بالشَّيْءِ بَلاءً وابْتُلِيَ... قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: يُقَالُ مِنَ الْخَيْرِ أَبْلَيْته إبْلاءً، وَمِنَ الشَّرِّ بَلَوْته أَبْلُوه بَلاءً، قَالَ: وَالْمَعْرُوفُ أَن الابْتِلاَءَ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ فِعْلَيْهِمَا؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]»[(٣)].

(١) الصحاح ٥/ ١٩٢٩.
(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٧٤.
(٣) لسان العرب ١٤/ ٨٤.

٣. تعريف الضّراء:

الضّراء مشتقة من: ضرر، قال في اللسان: «قَالَ ابْنُ الأَثير: الضَّراء الْحَالَةُ الَّتِي تَضُرُّ، وَهِيَ نَقِيضُ السَّرَّاء... وقال الْجَوْهَرِيُّ: والبَأْساءُ والضَّراء الشِّدَّةُ»[١]. وقيل: «الضَّراء: النقص في الأموال والأنفس»[٢].

٤. تعريف السنة:

أما لغة: فهي الطريقة المسلوكة، وأصلها من قولهم: سننت الشيء بالمسن، إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنًّا أي: طريقًا. قال الخطابي: أصلها الطريقة المحمودة، فإذا أطلقت انصرفت إليها، وقد يستعمل في غيرها مقيدة كقوله: «من سن سنة سيئة» وقيل: هي الطريقة المعتادة، سواء كانت حسنة أو سيئة، كما في الحديث الصحيح: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وأما معناها شرعًا: أي: في اصطلاح أهل الشرع، فهي: قول النبي ﷺ وفعله وتقريره، وتطلق بالمعنى العام على الواجب وغيره في عرف أهل اللغة والحديث، وأما في عرف أهل الفقه، فإنما يطلقونها على ما ليس بواجب، وتطلق على ما يقابل البدعة، كقولهم: "فلان من أهل السنة"[٣].

فموضوع بحثي يستند إلى الأحاديث النبوية في إثبات رحمة الله بعباده في ابتلائهم بالضراء، وسأفصل القول فيه في المباحث التالية.

(١) السابق ٤/٤٨٤.
(٢) تاج العروس: ١٢/ ٣٨٥.
(٣) إرشاد الفحول: ١/ ٩٥.

المبحث الأول
الرحمة الربانية في ابتلاء الأمة

إن الابتلاء من نعم الله عز وجل، ودليل محبته لعباده المؤمنين، فعن أنس ابن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»(١). فالله ﷻ يقدّر على عباده أمورًا يكرهونها، ليختبر رضاهم، فمن رضي نال من الله عز وجل ما يحبه.

وابتلاء الأمة يكون تارة اختبارًا، وتارة بسبب ما ظهر فيها من فساد، رحمة بها لترجع وتذعن لبارئها، قال ابن القيم: «إن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة. فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة، لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه»(٢).

والمتتبع لأحوال الأمة الإسلامية عبر التاريخ، يرى ما أصابها ويصيبها

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب ماجاء في الصبر على البلاء، ١٧٩/٤/ رقم ٢٣٩٦. وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».
(٢) زاد المعاد ١٩٨/٣.

من ابتلاءات، يشق على كثير من الناس إدراك المقصود منها. ومن خلال هذه الأسطر، سأقف على بعض مظاهر الرحمة في ابتلاء الأمة.

المطلب الأول
الابتلاء بالفتن العامة

إن الفتن سنّة من سنن الله عز وجل في خلقه، وهي مقدّرة وواقعة بهذه الأمة لا محالة، فقد أخبر النبي ﷺ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، بما هو كائن منها إلى يوم القيامة، فعن حذيفة بن اليمان قال: «والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسرّ إليّ في ذلك شيئًا، لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ، قال: وهو يحدث مجلسًا أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ: وهو يعدّ الفتن: مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا، وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ مِنْهَا صِغَارٌ وَمِنْهَا كِبَارٌ، قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري»[1]. وشبهها ﷺ بمواقع القطر من حيث كثرتها وعمومها على مر الأزمان، ومعلوم أن القطر لا يحصيه إلا الذي أنزله، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: «أشرف النبي ﷺ على أطم[2]، من آطام المدينة، فقال: هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي أَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ القَطْرِ»[3]. وذكر من هولها وشدتها والتباسها على الناس ما قد يكون سببًا في الخروج عن الملة، فعن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنٌ كَقِطَعِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، ٤/ ٢٢١٦/ رقم ٢٨٩١.

(٢) الأطم: بِنَاء مُرْتَفع، والأطم والأجم: الْحصن، وَجمعه: آطام وآجام.(انظر غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب آطام المدينة، ٣/ ٢١/ رقم ١٨٧٨.

اللَّيْلِ الْمُظْلِم، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1]. قال الملا علي القاري: «والظاهر أن المراد بالإصباح والإمساء تقلب الناس فيها وقتًا دون وقت، لا بخصوص الزمانين، فكأنه كناية عن تردد أحوالهم، وتذبذب أقوالهم، وتنوع أفعالهم من عهد ونقض، وأمانة وخيانة، ومعروف ومنكر، وسنة وبدعة، وإيمان وكفر»[2]

فإذا كان هذا حال الفتن وما فيها من الشدائد، فأين تتجلى الرحمة في الابتلاء بها؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال من وجوه:

أولًا: أنها ليست سببًا في هلاك الأمة جمعاء.

إن من عدل الله عز وجل وحكمته أن جعل هلاك الأمم السابقة التي عتت عن أمر ربها وكفرت بأنعمه، عذابًا وعقابًا لا يبقي ولا يذر، فعذب قوم نوح وفرعون بالغرق، وعاد بالريح، وقارون وقوم لوط بالخسف، وثمود بالصيحة، وأصحاب مدين وأصحاب الفيل بالرجم، إلى غير ذلك من أنواع العذاب.

بل إن من عدله ﷻ أن يعاقب العصاة من هذه الأمة بأنواع العذاب الدنيوي، ولن يكون ﷻ ظالمًا لهم، غير أن رحمته جل وعلا سبقت غضبه، فخفف عنهم استجابة لدعاء نبيه ﷺ ورحمة بأمته، فعن جابر رضي الله عنه، قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الفتن، باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم ٤/٥٨/ رقم ٢١٩٧. وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/٤٥٠/ رقم ٨١٠.

(٢) مرقاة المفاتيح ٨/٣٣٩٥.

أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا أَهْوَنُ -أَوْ هَذَا أَيْسَرُ-»[١].

فقضى الله على هذه الأمة بالفتن والقتال إلى يوم القيامة، وإنما كان هذا أهون، لأن المستعاذ مما قبله هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين، حتى لا يبقى من الأمة أحد. وما ذاك إلا أن هذه الأمة أفضل الأمم وآخرها، فعصمها الله وحفظها من الهلاك العام، ولم يُسلِّط عدوًا عليها كلها، ولم يأخذها بالسنين أو الغرق، بل جعل ابتلاءها بالفتن الناشئة من داخلها، فعن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[٢]. وفي حديث سعد بن أبي وقاص: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا»[٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قَوْله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] الآية، ٦/٥٦/ رقم ٤٦٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ٤/٢٢١٥/ رقم ٢٨٨٩.

(٣) السابق، ٤/٢٢١٦/ رقم ٢٨٩٠.

قال ابن تيمية: «وهذا البأس نوعان، أحدهما: الفتن التي تجري عليهم. والفتنة تَرِدُ على القلوب، فلا تعرف الحقَّ، ولا تقصده، فيؤذي بعضهم بعضًا بالأقوال والأعمال. والثاني: أن يعتدي أهل الباطل منهم على أهل الحقّ منهم، فيكون ذلك محنةً في حقّهم، يُكفّر الله بها سيِّئاتهم، ويرفع بالصبر عليها درجاتهم، وبصبرهم وتقواهم لا يضرّهم كيد الظالمين لهم، بل تكون العاقبة للتقوى، ويكونون من أولياء الله المتقين»[1].

ثانيًا: بيان المخرج منها

حرص النبي ﷺ على تحذير أمته من خطر الفتن التي تنزل بها، وبيَّن لها المخرج منها رحمة بها وخشية أن تهلكها. ومما أرشد إليه ﷺ:

١. الأمر باعتزال الفتن.

إن الله عز وجل قد منَّ على هذه الأمة بأن اختار لها خير خلقه وأرحمهم لتبليغ أمره، فما ترك ﷺ خيرًا يعلمه إلا أخبرها به، ولا شرًا إلا نفّرها منه، ولما كانت التفرقة والاختلاف من أنواع البأس الذي ابتليت به، حذرها من الوقوع فيه، لينجو منه من شاء الله له السلامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[2]. وعن محمد بن مسلمة قال: إن رسول الله ﷺ قال: إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ وَفُرْقَةٌ وَاخْتِلَافٌ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَأْتِ بِسَيْفِكَ أُحُدًا، فَاضْرِبْهُ حَتَّى يَنْقَطِعَ، ثُمَّ اجْلِسْ فِي بَيْتِكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ يَدٌ خَاطِئَةٌ، أَوْ مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ»[3]. وفي حديث كرز الخزاعي، قال: «قَالَ

(١) النبوات، ١/ ٤١٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٤/ ١٩٨/ رقم ٣٦٠١.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة، ٢/ ١٣١٠/ رقم٣٩٦٢. وصححه الألباني بمجموع طرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٦٩/ رقم ١٣٨١.

أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِهَذَا الْإِسْلَامِ مِنْ مُنْتَهًى؟ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا مِنْ عَرَبٍ أَوْ عَجَمٍ أَدْخَلَهُ عَلَيْهِمْ. قَالَ: ثُمَّ مَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ثُمَّ تَقَعُ فِتَنٌ كَالظُّلَمِ، قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَعُودُنَّ فِيهَا أَسَاوِدَ صُبًّا[1]، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، فَخَيْرُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ مُؤْمِنٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَذَرُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»[2]. فبين النبي ﷺ أن المخرج من الفتن هو اجتناب الدخول فيها، وأن شرها بحسب التعلق بها والتعرض لها والمشاركة فيها، فمن سارع فيها أهلكته، ورتب ﷺ الناس في الخيرية بحسب تعاملهم مع الفتنة، ودلّ على أن سبيل النجاة منها هو اعتزالها، وهذا ما فهمه كثير من الصحابة رضي الله عنهم ممن اعتزل الفتن، قال ابن تيمية: «والذين رووا هذه الأحاديث من الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة وأبي هريرة وغيرهم، جعلوا قتال الجمل وصفّين من ذلك، بل جعلوا ذلك أول قتال فتنة كان في الإسلام، وقعدوا عن القتال، وأمروا غيرهم بالقعود عن القتال، كما استفاضت بذلك الآثار عنهم»[3].

٢. وجوب طاعة الإمام:

إن نصوص الشريعة التي نصت على وجوب طاعة الإمام كثيرة وثابتة، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ، فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا، وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ»[4].

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٥/٣): "الأساودُ: الحياتُ. والصُّبّ: جَمع صَبُوب، عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ صُبُبٌ، كرسُول ورُسُل، ثُمَّ خُفِّف كرُسْل فأدْغم، وَهُوَ غريب مِنْ حَيْثُ الإدْغام. قَالَ النَّضر: إنَّ الأَسْوَدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْهش ارْتفع ثُمَّ انْصَبَّ عَلَى المَلْدُوغ".

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٣/٢٨٧/ رقم ٥٩٥٦.

(٣) منهاج السنة النبوية ٨/٥٢٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به، ٤/٥٠/ رقم ٢٩٥٧. وهو عند مسلم مختصرًا (٣/١٤٧١/رقم ١٨٤١)

فطاعة الإمام فيما أمر به من معروف واجبة، والحكمة في الأمر بطاعته المحافظة على اتفاق الكلمة، لما في الافتراق من الفساد، فالإمام يمنع العدو من أذى المسلمين، ويمنع الناس بعضهم من بعض، ويحمي بيضة الإسلام، ويتقيه الناس ويخافون سطوته. ولذلك وقع إجماع جمهور أهل السنة على عدم جواز الخروج على الإمام، لما يترتب عليه من فتنة عظيمة من سفك للدماء وهتك للأعراض وفساد للبلاد. وقد نص النبي ﷺ على أن الناس إن بايعت إمامًا، ثم جاء آخر فبويع له، فإنه يُوجب شق العصا وإراقة دماء المسلمين، فيُقتل الأخير ليستتبّ الأمن، وتتفق كلمة المسلمين على الأول الذي بايعوه. فعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ»[1].

٣. الصبر على الفتن

إن من أعظم ما يمنُّ الله عز وجل على عباده عصمتهم من الفتن، أو تثبيتهم إذا بالصبر ابتلوا، فعن المقداد بن الأسود، قال: ايم الله، لقد سمعت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول ٣/١٤٧٢/ رقم ١٨٤٤.

رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ، وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا»[1]. قال الملا علي القاري: «قال ابن الملك: معناه -أي فواها- التلهف، وقد يوضع موضع الإعجاب بالشيء والاستطابة له، أي: ما أحسن وما أطيب صبر من صبر، وقيل: معناه فطوبى له»[2]، فالسعادة الحقيقية جعلها الله ﷻ لمن امتحنوا بالفتن، فلم ينغمسوا فيها، وصبروا على ما أصابهم من أذاها.

ثالثًا: أنها رحمة من عذاب الآخرة.

خصّ الله عز وجل هذه الأمة بمزيد من الرحمة وإتمام النعمة، وخفف عنها الإصر والأثقال، مما كانت تؤخذ به الأمم السابقة، من قتل النفس في التوبة وإخراج ربع المال في الزكاة، وغير ذلك. وجعل ما يصيبها من فتن وغيرها في الدنيا صرفًا لعذاب الآخرة، فعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمَّتي هذه أُمَّةٌ مرحُومَةٌ، ليسَ عليها عذابٌ في الآخِرَةِ، عذابُها في الدُّنيا الفِتَنُ والزَّلازِلُ والقَتل»[3]. واختلف العلماء في مراد النبي ﷺ بقوله: «ليس عليها عذاب في الآخرة» على أقوال، ذكرها صاحب عون المعبود في شرحه لسنن أبي داود، فقال: «أي من عذب منهم لا يعذب مثل عذاب الكفار... وقال صاحب فتح الودود: أي إن الغالب في حق هؤلاء المغفرة. وقال القاري في المرقاة: بل غالب عذابهم أنهم مجزيون بأعمالهم في الدنيا بالمحن والأمراض وأنواع البلايا...وقيل الحديث خاص بجماعة لم تأت كبيرة، ويمكن أن تكون الإشارة إلى جماعة خاصة من الأمة، وهم المشاهدون من الصحابة، أو المشيئة مقدرة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وقال المظهر: هذا حديث مشكل لأن

(١) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الفتن، باب في النهي عن السعي في الفتنة ٤/١٠٢/ رقم ٤٢٦٣.
(٢) مرقاة المفاتيح ٨/ ٣٤٠١.
(٣) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الفتن، باب ما يرجى في القتل ٦/ ٣٣٤/ رقم ٤٢٧٨. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/٧٢٤/رقم ٩٥٩.

مفهومه أن لا يعذب أحد من أمته ﷺ سواء فيه من ارتكب الكبائر وغيره، فقد وردت الأحاديث بتعذيب مرتكب الكبيرة، اللهم إلا أن يأوّل بأن المراد بالأمة هنا من اقتدى به ﷺ كما ينبغي، ويمتثل بما أمر الله وينتهي عما نهاه. وقال الطيبي رحمه الله: الحديث وارد في مدح أمته ﷺ واختصاصهم من بين سائر الأمم بعناية الله تعالى ورحمته عليهم، وأنهم إن أصيبوا بمصيبة في الدنيا، حتى الشوكة يشاكها، أن الله يكفر بها في الآخرة ذنبا من ذنوبهم... وتعقيبها بقوله: مرحومة. فإنه يدل على مزيّة تمييزهم بعناية الله تعالى ورحمته...»[1].

وخلاصة كلامهم: أنه يدور حول أمرين: إما تخفيف العذاب عن هذه الأمة في الآخرة، وإما صرفه عنها كليًا بما يصيبها من الفتن وأنواع البلاء في الدنيا، وفي كل فضل من الله تعالى ومنة على هذه الأمة، ولذلك قال المناوي: «إن شأن الأمم السابقة يجري على طريق العدل وأساس الربوبية، وشأن هذه الأمة يجري على منهج الفضل والألوهية»[2].

المطلب الثاني
الابتلاء بالجهاد في سبيل الله

إن الجهاد في سبيل الله من أعظم العبادات وأشرفها، إذ هو في حد ذاته من نعم الله على عباده، يختص بها من يشاء، وقد ورد في الأحاديث من الفضائل للمجاهد والشهيد ما لم يرد في غيره من العمل الصالح، وما ذاك إلا لما يترتب عليه من مصالح عظيمة من نشر التوحيد وإزالة الفتنة والشرك والظلم.

(١) عون المعبود ١١/٢٤٠ مختصرًا.
(٢) فيض القدير ٢/١٨٥.

وبرغم ما في الجهاد من مشقة من بذل الأرواح والأموال، إلا أن في فرضيته حكمة بالغة لله عز وجل، ورحمة بعباده، تتجلى فيما يمدهم به ﷻ من النعم في الدنيا والآخرة. والمتأمل في مغازي رسول الله ﷺ يدرك من الحكم الربانية العظيمة ما قد يخفى عن كثير من الناس، ولا أدل على ذلك من غزوة أُحُد، التي تجلت فيها رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين، والحكمة البالغة، برغم الهزيمة أمام المشركين، وقد لخصها ابن حجر في قوله: «قال العلماء: وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة... منها: أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة...والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائمًا، دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب... ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضمًا للنفس وكسرًا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون. ومنها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن، ليصلوا إليها. ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء، فساقها إليهم. ومنها: أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك، من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحّص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين»[1].

ومن مظاهر الرحمة الربانية في الابتلاء بالجهاد:

١. إعانة الله للمجاهد

إن الله عز وجل كتب على نفسه، وهو الحق وقوله الحق، أن يعين كل من خرج مجاهدًا في سبيله، ولم يكِلْه إلى نفسه، فعن أبي هريرة قال: قال

(١) فتح الباري ٣٤٧/٧، مختصرًا.

رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ»[1]. قال الطيبي: «إنما آثر هذه الصيغة إيذانًا بأن هذه الأمور من الأمور الشاقة، التي تقدح الإنسان وتقصم ظهره، لولا أن الله تعالى يعينه عليها لا يقوم بها»[2]. ومن عون الله عز وجل إمداده الغزاة في سبيله، بالملائكة يقاتلون معهم، فجعل ﷻ ذلك لهم بشارة ليزدادوا ثباتًا على لقاء العدو، وسكنًا لقلوبهم من الخوف الذي يطرقها من كثرة عددهم. فعن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب، قال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»[3].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم ٤/١٨٤/ رقم ١٦٥٥. وقال: «هذا حديث حسن».
(٢) الكاشف عن الحقائق والسنن ٧/٢٢٦٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم ٣/١٣٨٣/ رقم ١٧٦٣.

٢. البشارة بالنصر والفتح.

إن النصر والفتح من عند الله عز وجل، فسبحانه يؤيد بنصره من يشاء ويخذل من يشاء، وسنة الله تعالى ماضية في نصر من ينصر دينه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. ووعد الله هذه الأمة بهذه العاقبة المحمودة في الدنيا، فعن عبدالله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ وَمُصِيبُونَ وَمَفْتُوحٌ لَكُمْ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَلْيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ»(١). قال الصنعاني: «فيه البشرى بأن الأمة تنصر على من عاداها، وتصيب من حاربها، وتفتح بلاد من ناداها»(٢). فتكون لها العاقبة، برغم ما قد يصيبها من قرح. بل ستفتح لها مشارق الأرض ومغاربها، وهي بشارة النبي ﷺ لأمته، فعن ثوبان: أن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى زَوَى لِي الْأَرْضَ، حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَأَعْطَانِي الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ»(٣). وفي حديث جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لَتَفْتَحَنَّ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ -أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ- كَنْزَ آلِ كِسْرَى الَّذِي فِي الْأَبْيَضِ»(٤).

٣. جعل الله الجهاد سببًا للغنى.

إن الله عز وجل أوجب على نفسه، بفضله وكرمه، لكل من خرج مجاهدًا في سبيله، مخلصًا لله عز وجل، إما أن يرزقه الشهادة وما فيها من فضل، وإما أن يرده لأهله مأجورًا غانمًا بما يفتح عليه من الدنيا، مما يزيل عنه شظف

(١) أخرجه االترمذي في جامعه، أبواب الفتن، باب ٧٠، ٤/ ٩٤/ ٢٢٥٧. وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
(٢) التحبير لإيضاح معاني التيسير ١/٣٤٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه بعضهم ببعض ٤/٢٢١٥/ رقم ١٩.
(٤) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٤/٢٢٣٧/ رقم ٢٩١٩.

عيشه، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِه، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِه الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِه حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»[1]. وفي حديث ابن عمر، عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى، قال: «أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي خَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِي، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، ضَمِنْتُ لَهُ أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَإِنْ قَبَضْتُهُ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ وَأَرْحَمَهُ، وَأُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»[2]. وقد عبّر ﷺ عن الله ﷻ بتفضله بالثواب بلفظ الضمان ونحوه، مما جرت به عادة المخاطبين فيما تطمئن به نفوسهم. وفي حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «سَافِرُوا تَصِحُّوا، وَاغْزُوا تَسْتَغْنُوا»[3]. فجعل الله ﷻ الغزو في سبيله سببًا للغنى، وهذا وعد حق من الله عز وجل، بشر به النبي ﷺ في قوله: «وَأَعْطَانِي الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ»[4].

٤. تهوين سكرات الموت على المجاهد

إن للموت سكرات لا يسلم منها أحد من العباد، إلا من تفضّل الله ﷻ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ٣/١٤٩٥/ رقم ١٨٩٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١٠/ ١٨٦/ رقم ٥٩٧٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٤/٥٠٧/ رقم ٨٩٤٤. وقال الألباني: «حديث أبي هريرة؛ فله طريقان: الأولى: عن دراج عن ابن حجيرة عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: ... فذكره. أخرجه الإمام أحمد (٢/٣٨٠): حدثنا قتيبة: حدثنا ابن لهيعة. قلت: وهذا إسناد حسن، رجاله كلهم ثقات على ما عرفت من استقامة حديث دراج عن ابن حجيرة في الحديث المتقدم (٣٣٥٠)، وابن لهيعة وإن كان سيئ الحفظ؛ فإنه صحيح الحديث في رواية العبادلة عنه، وألحق بهم قتيبة هذا، وهو ابن سعيد».

(٤) تقدم تخريجه.

عليه بتهوينها. ولما كان المجاهد قد جاد بنفسه في سبيل الله، فإن الله عز وجل قد منَّ عليه بذلك، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ»[1]. قال الطيبي: «القرص الأخذ بأطراف الأصابع وأتى بأداة الحصر دفعًا لتوهم من يتصور أن ألمه يفضل على ألمها»[2].

وقال ابن تيمية: «فإن الخلق لا بد لهم من محيا وممات، ففيه استعمال محياهم ومماتهم في غاية سعادتهم في الدنيا والآخرة، وفي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما. فإن من الناس من يرغب في الأعمال الشديدة في الدين أو الدنيا مع قلة منفعتها، فالجهاد أنفع فيهما من كل عمل شديد، وقد يرغب في ترفيه نفسه حتى يصادفه الموت، فموت الشهيد أيسر من كل ميتة وهي أفضل الميتات»[3].

المطلب الثالث
الابتلاء بالكوارث

١. الابتلاء بالأوبئة

إن الله عز وجل ابتلى الأمم السابقة بأنواع من الأوبئة عقابًا لها، وكان الطاعون أحدها، فجعله ﷻ لهذه الأمة رحمة بفضله ومنته، فعن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، قالت: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل المرابط، ٣/٢٤٢/ رقم ١٦٦٨.
(٢) مرقاة المفاتيح ٦/٢٤٨٣.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٥٤.

إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ»[1]. وفي حديث أبي عسيب، مولى رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ بِالْحُمَّى، وَالطَّاعُونِ، فَأَمْسَكْتُ الْحُمَّى بِالْمَدِينَةِ، وَأَرْسَلْتُ الطَّاعُونَ إِلَى الشَّامِ، فَالطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِأُمَّتِي، وَرَحْمَةٌ، وَرِجْسٌ عَلَى الْكَافِرِ»[2]. وهذا صريح في أن كون الطاعون رحمة إنما هو خاص بالمسلمين، وإذا وقع بالكفار فإنما هو عذاب عليهم يعجل لهم في الدنيا قبل الآخرة. قال القرطبي: «قال العلماء: وهذا الوباء قد يرسله الله نقمة وعقوبة على من يشاء من العصاة من عبيده وكفرتهم، وقد يرسله شهادة ورحمة للصالحين، كما قال معاذ في طاعون عمواس: إنه شهادة ورحمة لكم ودعوة نبيكم، اللهم أعط معاذًا وأهله نصيبهم من رحمتك. فطعن في كفه ﷺ»[3]. وكان النبي ﷺ قد دعا أن يجعل فناء أمته بالطاعون، كما في حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهُمَّ اجْعَلْ فَنَاءَ أُمَّتِي فِي سَبِيلِكَ بِالطَّعْنِ، وَالطَّاعُونِ»[4]. وقال الراغب: «نبّه بالطعن على الشهادة الكبرى وهي القتل في سبيل الله، وبالطاعون على الشهادة الصغرى... قال العلماء: أراد المصطفى ﷺ أن يحصل لأمته أرفع أنواع الشهادة، وهو القتل في سبيل الله بأيدي أعدائهم، إما من الإنس وإما من الجن»[5]. ولذلك ردّ شرحبيل بن حسنة قول عمرو ابن العاص في وصف الطاعون بأنه رجس، فعن أبي منيب أن عمرو بن العاص، قال في الطاعون في آخر خطبة خطب الناس، فقال: «إِنَّ هَذَا رِجْسٌ مِثْلُ السَّيْلِ، مَنْ يَنْكُبْهُ أَخْطَأَهُ، وَمِثْلُ النَّارِ مَنْ يَنْكُبْهَا أَخْطَأَتْهُ، وَمَنْ أَقَامَ أَحْرَقَتْهُ وَآذَتْهُ، فَقَالَ شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ: إِنَّ هَذَا رَحْمَةُ رَبِّكُمْ، وَدَعْوَةُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار ٤/١٧٥/ رقم ٣٤٧٤.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٤/٣٦٦/ رقم ٢٠٧٦٧. وصحح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/٣٨٨/ رقم ٧٦١.
(٣) تفسير القرطبي ٣/ ٢٣٥.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢٤/ ٣٧٤/ رقم ١٥٦٠٨. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/٣١٢، وقال: رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، ورجال أحمد ثقات.
(٥) فيض القدير ٢/٢١١.

نَبِيِّكُمْ، وَقَبْضُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ»[1]. قال أبو قلابة: «قد عرفت الشهادة والرحمة، ولم أعرف ما دعوة نبيكم؟ فسألت عنها فقيل: دعا عليه السلام أن يجعل فناء أمته بالطعن والطاعون، حين دعا ألا يجعل بأس أمته بينهم فمنعها، فدعا بهذا»[2].

٢. الآيات الكونية

إن الله تعالى جعل الآيات الكونية للدلالة على عظمته وقوته وجبروته، وقدرته على خلقه، وأنزلها ﷻ عقابا للأمم السابقة لما عتت عن أمره، فأخذها أخذ عزيز مقتدر، قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٢٢]. فسلط على كل أمة صنفًا معينًا أو أكثر من أصناف الهلاك، قال ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

ومن رحمته ﷻ بهذه الأمة أن جعل هذه الآيات سبيلًا للتخويف والإنذار دون العذاب، تذكيرًا للعباد الغافلين وردعا لهم، ليتوبوا إليه، ويستغفروه، ويعبدوه. فعن أبي موسى الأشعري قال: «خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَزِعًا، يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فَأَتَى المَسْجِدَ، فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَقَالَ: هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي يُرْسِلُ اللَّهُ، لاَ تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ»[3]. قال العيني: «والكسوف آية من آيات الله تعالى يخوف الله به عباده، ليتركوا المعاصي ويرجعوا إلى طاعة الله تعالى التي فيها فوزهم»[4]. فالتضرع إلى الله واللجوء والافتقار إليه عند نزول الآيات،

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٩/ ٢٩٠/ رقم ١٧٧٥٦.
(٢) تفسير القرطبي ٣/ ٢٣٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الكسوف، باب الذكر في الكسوف ٢/ ٣٩/ رقم ١٠٥٩.
(٤) عمدة القاري ٥/ ٣٠٠.

سبب لدفع نقم الله عز وجل. ولذلك كان النبي ﷺ حريصًا على توجيه أمته عند نزول آية من الآيات لما ينجيهم منها، فعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تُرْسَلُ بِالرَّحْمَةِ، وَتُرْسَلُ بِالْعَذَابِ، فَلَا تَسُبُّوهَا وَقُولُوا: اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا»(١).

ولما قضت حكمة الله ﷻ أن يهلك بعض عباده بسبب هذه الآيات، فقد منَّ ﷻ عليهم بمنزلة الشهداء، فعن عبدالله بن جبر: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ جَبْرًا، فَلَمَّا دَخَلَ سَمِعَ النِّسَاءَ يَبْكِينَ وَيَقُلْنَ: كُنَّا نَحْسَبُ وَفَاتَكَ قَتْلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: «وَمَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ إِلَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ شُهَدَاءَكُمْ إِذًا لَقَلِيلٌ، الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهَادَةٌ، وَالْبَطْنُ شَهَادَةٌ، وَالْحَرَقُ شَهَادَةٌ، وَالْغَرَقُ شَهَادَةٌ، وَالْمَغْمُومُ - يَعْنِي الْهَدِمَ - شَهَادَةٌ، وَالْمَجْنُونُ شَهَادَةٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدَةٌ»(٢). ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يرون الآيات بركة، فعن علقمة، قال: «زُلْزِلَتْ عَلَى عَهْدِ عَبْدِاللَّهِ، فَقَالَ: إِنَّا كُنَّا نَرَى الْآيَاتِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ بَرَكَاتٍ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَهَا تَخْوِيفًا»(٣).

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقال إذا هاجت الريح، ٩/ ٣٤٠/ رقم١٠٦٦٩.
(٢) أخرجه النسائي في السنن، كتاب الجهاد، باب من خان غازيًا في أهله، ٦/ ٥١/ رقم ٣١٩٤.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده ١/ ١٨٢/ رقم ٢٦٤.

المبحث الثاني
الرحمة الربانية في ابتلاء الفرد

اقتضت حكمة الله ﷻ أن يصاب العباد بأنواع من البلاء، فأكملهم إيمانا أشدهم بلاء، فعن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: «يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِه، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِه، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(١). ولذا لم يسلم منه سيد الخلق وأحبهم إلى الله عليه أفضل الصلاة والسلام، فابتلي في نفسه وأهله وولده وماله. وأنواع البلاء لا تخرج عن هذه الأربعة، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٢). قال ابن القيم: «إن البلاء الذي يصيب العبد فى الله لا يخرج عن أربعة أقسام، فإنه: إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو فى عرضه أو فى أهله ومن يحب. والذى فى نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله»(٣).

فإذا كانت هذه الأنواع من البلاء قدرًا محتومًا، فما هي أبواب الرحمة التي تفتح للمبتلى؟

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/ ٦٠١/ رقم ٢٣٩٨.
(٢) السابق ٤/ ٦٠٢/ رقم ٢٣٩٩.
(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ١٩٣.

المطلب الأول
الابتلاء في النفس والأهل

أولًا: الابتلاء بالأسقام

إن الله عز وجل قد منَّ على المبتلى بنعم لا تحصى، وحفَّه بلطائف قَدَره، على قَدْر رضاه بما قضى الله تعالى له، لذلك قال رسول الله ﷺ، فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْه»[1]. فمن لطائف الله عز وجل بالمبتلى:

١. تكفير الذنوب وتعجيل العقوبة في الدنيا

إن صفة كرم الله تعالى وحلمه تظهر جليًا في تجاوزه عن المسيئين بأدنى الأسباب، وحاجة العبد إلى مكفرات الذنوب أكبر من حاجته إلى الطعام، لما جبلت عليه النفوس من اقتراف المعاصي والآثام، كما في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُم»[2](الحديث). فمن عَدْل الله عز وجل أن يصاب العبد بالأسقام بما كسبت يداه، ومن فضله سبحانه وتعالى ورحمته أن جعل هذه الأسقام كفارة له، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِه، وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»[3]. لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يستبشرون بالمرض خيرًا، ويدعون لأنفسهم به، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ الَّتِي تُصِيبُنَا مَا لَنَا بِهَا؟ قَالَ:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٥/ رقم ٥٦٤٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤/ رقم ٢٥٧٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب شدة المرض، ٧/ ١١٥/ رقم ٥٦٤٧.

كَفَّارَاتٌ. قَالَ أُبَيٌّ: وَإِنْ قَلَّتْ؟ قَالَ: وَإِنْ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا. قَالَ: فَدَعَا أُبَيٌّ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يُفَارِقَهُ الْوَعْكُ حَتَّى يَمُوتَ فِي أَنْ لَا يَشْغَلَهُ عَنْ حَجٍّ، وَلَا عُمْرَةٍ وَلَا جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي جَمَاعَةٍ. فَمَا مَسَّهُ إِنْسَانٌ، إِلَّا وَجَدَ حَرَّهُ حَتَّى مَاتَ»[1]. وكان أبو هريرة ﷺ يقول: «مَا من مَرض يُصيبُني أَحبُّ إِليَّ مِن الحُمَّى؛ لأَنَّها تَدخُلُ فِي كُل عُضو مِني، وَإِنَّ اللَّهَ عَز وجَل يُعطي كُل عُضوٍ قِسطَهُ مِن الأَجْرِ»[2]

ومن عظم لطف الله عز وجل بالعبد والمنّة عليه، أن جعل ابتلاءه بالمكاره تعجيلًا لعقوبته في هذه الدنيا، وهذا أهون عليه من أن يحاسب به في الآخرة، فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[3]. ومن كرمه ﷻ وعده أن لايُثَنِّيَ عليه العذاب في الآخرة، فعن عبادة بن الصامت قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا -قَرَأَ عَلَيْهِمُ الآيَةَ- فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»[4].

٢. رفع منزلة العبد

إن غاية ما يرجو العبد المؤمن المنزلة الرفيعة في الجنة، فيسعى جاهدًا مجتهدًا في تحصيلها، وقد يقصر به عمله عن إدراكها، فيمنُّ الله عز وجل

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٧٦/١٧/ رقم ١١١٨٣. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٠٢/٢/ رقم ٣٧٩٨: «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٥٦ رقم ٥٠٣. وقال ابن حجر في الفتح (١١٠/١٠) «بسند صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ١٧٩/٤/ رقم ٢٣٩٦. وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»

(٤) السابق، أبواب الحدود، باب ما جاء في أن الحدود كفارة لأهلها، ٩٧/٣/ رقم١٤٣٩.

عليه بها بما يصيبه من أنواع البلاء، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»(١). وفي هذا أعظم بشارة لأهل البلاء الصابرين على الضراء والبأساء، فظهرت بذلك الحكمة من إصابة المؤمن بأنها إرادة له بالخير، حتى إن أهل العافية ليغبطونه لما يطلعوا على ما تفضَّل الله ﷻ به عليه من الثواب، فعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلاَءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ»(٢).

٣. أن الله يجري له عمله

إن من يسر الإسلام أن نزَّل الشارع العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»(٣). قال ابن بطال: «وليس هذا الحديث على العموم، وإنما هو لمن كانت له نوافل وعادة من عمل صالح، فمنعه الله منها بالمرض أو السفر وكانت نيته لو كان صحيحًا أو مقيمًا أن يدوم عليها ولا يقطعها، فإن الله يتفضل عليه بأن يكتب له أجر ثوابها حين حبسه عنها، فأما من لم يكن له تنفل ولا عمل صالح فلا يدخل في معنى الحديث؛ لأنه لم يمنعه مرضه من شيء فكيف يكتب له ما لم يكن يعمله؟»(٤)، وفي هذا مواساة لمن منعه المرض من الطاعات، من أن يتحسر على ما فاته منها، وتهوينًا عليه لما أصابه من مرض أو مانع. وفي الحديث القدسي، عن شداد بن أوس قال: «سمعت

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٦٩/٧/ رقم ٢٩٠٨. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٥٩٩)
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب (٥٨)، ٤/ ١٨١/ رقم ٢٤٠٢. وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٦٠).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة ٤/ ٥٧/ رقم ٢٩٩٦.
(٤) شرح صحيح البخاري ٥/ ١٥٤.

رسول الله ﷺ يقول: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ[1]. قال الغزالي: إنما نال العبد هذه المرتبة لأن كل مؤمن يقدر على الصبر على المحارم، وأما الصبر على البلاء فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين، فإن ذلك شديد على النفس فلما قاسى مرارة الصبر جوزي بها الجزاء الأوفى»[2].

ثانيا: الابتلاء في العرض.

إن من أشد ما يؤذي العبد المؤمن ما يلحقه من أذى في عرضه، والعرض من الكليات الخمس التي جاء الشرع بحفظها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُه»[3]. فلذلك نجد أن المنح الربانية من أعظم ما يجازي الله عز وجل به العبد على ما تحمله من أذى. ونذكر منها:

١. محبة الله للمبتلى

إن من أسمى ما يصبو إليه العبد المؤمن، أن يصل إلى محبة الله ﷻ، فليست هناك غاية ترجى أفضل من هذه الغاية، لما في محبة الله ﷻ للعبد من الفضل والمنَّة، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: ... وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/٣٤٣/ رقم ١٧١١٨. وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٦١١.
(٢) فيض القدير ٤/٤٧٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله ٤/ ١٩٨٦/ رقم ٢٥٦٤.

يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1]. فإذا أحب الله عبدًا سدده في قوله وعمله، وحفظه في دينه ودنياه، وأعطاه ما سأله، وليس هناك منزلة يصل إليها العبد أفضل من هذه المنزلة.

وقد وسَّع الله عز وجل سبل تحصيل محبته، مثوبة منه تعالى وفضلًا، فجعل ﷻ للصابر على أذى غيره نصيبا منها، فعن مطرف، قال: كان يبلغني، عن أبي ذر حديث فكنت أشتهي لقاءه، فلقيته، فقلت: «يَا أَبَا ذَرٍّ كَانَ يَبْلُغُنِي عَنْكَ حَدِيثٌ، فَكُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ، فَقَالَ: لِلَّهِ أَبُوكَ فَقَدْ لَقِيتَنِي فهات، قَالَ: قُلْتُ: حَدِيثًا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَكَ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ ثَلَاثَةً، وَيُبْغِضُ ثَلَاثَةً، قَالَ: فَلَا أَخَالُنِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: رَجُلٌ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ صَابِرًا، مُحْتَسِبًا، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، وَأَنْتُمْ تَجِدُونَهُ عِنْدَكُمْ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف:٤]، قُلْتُ: وَمَنْ؟ قَالَ: رَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارُ سُوءٍ، يُؤْذِيهِ، فَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُ، حَتَّى يَكْفِيَهُ اللهُ إِيَّاهُ بِحَيَاةٍ، أَوْ مَوْتٍ»[2]. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[3]. فلما كانت مخالطة الناس وتحمل أذاهم سواء البدني أو النفسي أو غيره من أعظم أنواع الصبر، حبَا الله ﷻ المبتلى بها بمعيته له، وهي أفضل ما يناله العبد، مع ما وعد الله تعالى الصابرين من أجر بغير حساب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥/ رقم ٦٥٠٢.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٥٢/ رقم ١٦٣٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٧٠/ رقم ١٣٥٧٣: «وإسناد الطبراني وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح».
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٩/ ٦٤/ رقم ٥٠٢٢.

٢. تهوين المصائب

إن قذف المسلم في عرضه من أكبر الإساءات التي قد تقترف في حقه، لما لها من آثار تؤثر على سائر أسرته. فمن ابتلي بذلك فله في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، في تعامله مع تلك الشائعات التي نالت منه ﷺ، ومن زوجه الطاهرة المطهرة ﷺ. فقد كانت حادثة الإفك ابتلاءً كبيرًا ومحنة عظيمة للنبي ﷺ وزوجه عائشة ﷺ، وكان تأخر الوحي عن النبي ﷺ شهرًا، ذريعة للخائضين في الموضوع لنشره وذيوعه. غير أن ألطاف الله عز وجل كانت حاضرة وجلية، فقد صرف ﷻ علم عائشة ﷺ بهذا الأمر طيلة هذه المدة، رحمة بها، فعن عائشة ﷺ قالت: «فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لاَ أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ»[1]. ولم يمر يومان عن علمها بالأمر، حتى كانت البشارة الكبرى ونزلت براءتها قرآنا يتلى إكرامًا لها ﷺ وأرضاها.

والخوض في الأعراض أصبح أمرًا شائعًا بين الناس، لا يتورع عنه إلا من سلمه الله تعالى من هذه الآفة، ولولا لطف الله بعباده بعدم اطلاعهم عما يخاض فيه من الأعراض، لتكدرت النفوس، ولقُطِّعت الأرحام، ولعمَّ الفساد في الأرض.

ثالثا: الابتلاء في الأبناء

إن الأبناء نعمة من نعم الله على خلقه وهبة ربانية، فهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وقد جبلت النفوس على حبهم، فلا يصبر على فقدهم كثير من الناس، فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: «مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا ٣/١٧٣/ رقم ٢٦٦١.

عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي. قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[1]. فالجزع والوَجْد من أشد ما يصيب العبد عند فَقْدِ أحد أبنائه، وليس المقصود الحزن الذي لم ينه عنه الشرع، فهذا من الرحمة التي بيَّنَها سيد البشر ﷺ حين مات ابنه إبراهيم، وسأله عبدالرحمن بن عوف، فقال ﷺ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ قال: إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[2]. فالله ﷻ ممتحن عباده ومبتليهم بفقد الأبناء، فمن صبر وأسلم أمره لله تعالى، فإن الله ﷻ وعده ببشارات تواسيه وتهون عليه، منها:

١. العوض في الدنيا والآخرة.

إن من أعجل ما يواسي الله به العبد الذي صبر على فراق الولد، ورضي بالقضاء، وأسلم لله تعالى الأمر في الضراء، أن يعوضه خيرا مما أخذ منه، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: «اشْتَكَى ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: فَمَاتَ، وَأَبُو طَلْحَةَ خَارِجٌ، فَلَمَّا رَأَتِ امْرَأَتُهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ هَيَّأَتْ شَيْئًا، وَنَحَّتْهُ فِي جَانِبِ البَيْتِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُو طَلْحَةَ قَالَ: كَيْفَ الغُلاَمُ، قَالَتْ: قَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْتَرَاحَ، وَظَنَّ أَبُو طَلْحَةَ أَنَّهَا صَادِقَةٌ، قَالَ: فَبَاتَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَعْلَمَتْهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِمَا كَانَ مِنْهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا» قَالَ سُفْيَانُ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلاَدٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ القُرْآنَ»[3]. فإذا كانت هذه منحة عاجلة من الله ﷻ تطمئن لها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور ٢/٧٩/ رقم ١٢٨٣.
(٢) السابق، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»، ٢/ ٨٣/ رقم ١٣٠٣.
(٣) السابق، باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة، ٢/ ٨٢/ ١٣٠١.

النفوس، وتجبر بها القلوب المنكسرة، فإن المنحة الأخروية أجلُّ وأعظم، فعن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْد، قَالَ اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِه: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِه، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[1]. قال المناوي: «موت الأولاد فلذ الأكباد، ومصابهم من أعظم مصاب، وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب، يا له من صدع لا يشعب، يوهي القوي، ويقوي الوهي، ويوهن العظم، ويعظم الوهن، مر المذاق، صعب لا يطاق، يضيق عنه النطاق، شديد على الإطلاق، لا جرم أن الله تعالى حث فيه على الصبر الجميل، ووعد عليه بالأجر الجزيل، وبنى له في الجنة ذاك البناء الجليل»[2].

٢. النجاة من النار

إن أرجى عمل للعبد في دنياه، عمل ينجيه من النار. فمنَّ الله عز وجل بهذه المنحة العظيمة على من طابت نفسه بعد فَقْد أبنائه، ورضي بقضاء الله وقدره، فعن أبي سعيد رضي الله عنه: «أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِي ﷺ: اجْعَلْ لَنَا يَوْمًا فَوَعَظَهُنَّ، وَقَالَ: أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، قَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَانِ؟ قَالَ: وَاثْنَانِ»[3]. قال ابن بطال: «وقال بعض العلماء: الثلاثة داخلة في حيّز الكثير، وقد يصاب المؤمن فيكون في إيمانه من القوة ما يصبر للمصيبة، ولا يصبر لترادها عليه، فلذلك صار من تكررت عليه المصائب فَصَبَر، أوْلَى بجزيل الثواب، والولد من أجل ما يسر به الإنسان لقد يرضى أن يفديه بنفسه... فلذلك قصد رسول الله إلى أعلى المصائب

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسبت، ٢/٣٣٢/ رقم ١٠٢١. وقال: «حديث حسن غريب».
(٢) فيض القدير ١/ ٤٤٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب، وقال الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥] ٢/ ٧٣/ رقم ١٢٤٩.

والحض على الصبر عليها... فإذا طابت نفسه على الرضا عن الله في فعله، استكمل جزيل الأجر»[1].

المطلب الثاني
الابتلاء في المال

إن النبي ﷺ لم يخش يوما على أمته الفقر، كما خشي عليها الغنى، فعن عمرو بن عوف، أن رسول الله صلى الله عليه سلم قال، لما جاءه أبو عبيدة بمال البحرين: «فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ»[2]. بل حبَّذ ﷺ حال أهل الصفة وما كانوا عليه من فقر عما سيصيرون إليه من الغنى، فعن واثلة بن الأسقع قال: «كُنْتُ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُصَلِّينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ بَعْدِي إِذَا شَبِعْتُمْ مِنْ خُبْزِ الْبُرِّ وَالزَّيْتِ، وَأَكَلْتُمْ أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَلَبِسْتُمْ أَنْوَاعَ الثِّيَابِ؟ فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ أَمْ ذَاكَ؟ قُلْنَا: أَوْ ذَاكَ، قَالَ: بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ. قَالَ وَاثِلَةُ: فَمَا ذَهَبَتْ بِنَا الْأَيَّامُ حَتَّى شَبِعْنَا مِنْ خُبْزِ الْبُرِّ وَالزَّيْتِ، وَأَكَلْنَا أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَلَبِسْنَا أَلْوَانَ الثِّيَابِ، وَرَكِبْنَا الْمَرَاكِبَ»[3]. فلماذا فضَّل النبي ﷺ الفقر على الغنى، مع ما فيه من ضيق عيش وحاجة؟ وأين تتجلى الرحمة الربانية بالفقراء؟

١. حماية الله للعبد

إن الله عز وجل أعلم بالنفوس وما جبلت عليه من حب الدنيا وزينتها،

(١) شرح صحيح البخاري ٣/ ٣٦٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٨/ ٩٠/ رقم ٦٤٢٥.
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٥٢٩/ رقم ٩٨٤٠.

فمن حبه ﷻ لعبده حفظه من أن ينغمس فيها، وأبعده عما يضر منها، فعن قتادة بن النعمان، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ»[1].وفي رواية لأحمد عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ»[2]. قال المناوي: «أي يمنعه منها ويقيه أن يتلوث بدنسها، كيلا يمرض قلبه بداء حبها وممارستها... فهو إنما يحميه لعاقبة محمودة وأحوال سديدة مسعودة»[3].

٢. السبق إلى الجنة

ان من فضل الله ونعمته على الفقراء، أن جعل ضيق عيشهم في الدنيا سببًا لسبقهم إلى الجنة، وعاقبة يستبشرون بها، ليرضوا بما آتاهم الله تعالى من فضله، ويحمدوه على جوده وكرمه، «لأنه ﷻ خلق عباده على أوصاف شتى، فمنهم القوي والضعيف والوضيع والشريف، فمن علم من قلبه قوة على حمل أعباء الفقر، الذي هو أشد البلاء، وصبر على تجرع مرارته، أفقره في الدنيا ليرفعه على الأغنياء في العقبى»[4]. فعن أبي عبدالرحمن الحبلي قال: «جَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ إِلَى عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّا، وَاللهِ مَا نَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، لَا نَفَقَةٍ، وَلَا دَابَّةٍ، وَلَا مَتَاعٍ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا شِئْتُمْ، إِنْ شِئْتُمْ رَجَعْتُمْ إِلَيْنَا فَأَعْطَيْنَاكُمْ مَا يَسَّرَ اللهُ لَكُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَكَرْنَا أَمْرَكُمْ لِلسُّلْطَانِ، وَإِنْ شِئْتُمْ صَبَرْتُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الطب، باب ما جاء في الحمية ٣/٤٤٩/ رقم ٢٠٣٦.
(٢) أخرجه في مسنده ٣٩/٣٣/ رقم ٢٣٦٢٢.
(٣) فيض القدير ٢/ ٢٦٠.
(٤) السابق ٢/ ٢٦٢.

الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا» قَالُوا: فَإِنَّا نَصْبِرُ، لَا نَسْأَلُ شَيْئًا»[1].

قال الملا علي: «المعنى بمقدار أربعين سنة من أعوام الدنيا أو الأخرى، مع احتمال أن يراد بها الكثرة ويختلف باختلاف أحوال الفقراء والأغنياء في الكمية والكيفية المعتبرة، وخلاصته: أن الفقراء في تلك المدة لهم حسن العيش في العقبى مجازاة لما فاتهم من التنعم في الدنيا»[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٨٥/ رقم ٣٧.
(٢) مرقاة المفاتيح ٨/ ٣٢٧٦.

خاتمة

إن ما أدرجت في هذا البحث من أدلة حديثية عن رحمة الله في الابتلاء بالضراء، لا يعد إلا غيضًا من فيض، لأن المقام لا يسمح باستقراء كل الأحاديث.

ومن أهم ما خلصت إليه:

- إن المنح الربانية المرافقة لأنواع الابتلاء بالضراء جلية لا تكاد تخفى على أحد، وكلما اشتد البلاء، كلما زادت المنح، سواء الدنيوية أو الأخروية، لتواسي العبد في محنته، فضلًا من الله عز وجل وكرمًا.
- إن كل عقوبة من الله ﷻ عدل في حق من نزلت به، ومع ذلك فإنها لا تخلو من منَّة الله تعالى، إما بتعجيل عقوبة، أو تكفير ذنوب، أو رفع درجات.
- إن كل من يتسخط مما يصيبه من أنواع البلاء، لم يدرك حقيقته، وهو إجحاف في حق خالقه ﷻ المتفضل عليه بأنعمه.

فنحن بأمسِّ الحاجة إلى إحياء المفاهيم الصحيحة للابتلاء بالضراء، وما فيه من فضائل، في ظل ما أصبح يعرفه المجتمع الإسلامي اليوم من

تشبع بالنظرة المادية للحياة. وهذه المهمة منوطة بكل المؤسسات التربوية والاجتماعية والأسرية التي لها الدور الأساس في تنشئة الأجيال.

فهرس المصادر والمراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: لمحمد بن حبان بن أحمد ابن حبان البُستي، ترتبه: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه: شعيب الأرناؤوط، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢. الأدب المفرد: لمحمد بن إسماعيل البخاري، حققه: محمد فؤاد عبدالباقي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩-١٩٨٩م، دار البشائر الإسلامية - بيروت.

٣. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: لمحمد بن علي الشوكاني، حققه: الشيخ أحمد عزو عناية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، دار الكتاب العربي.

٤. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، حققه: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.

٥. تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمّد بن محمّد بن عبدالرزّاق الزَّبيدي، دار الهداية.

٦. التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير: لمحمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني، حققه: محَمَّد صُبْحي بن حَسَن حَلّاق، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ-٢٠١٢م، مَكتَبَةُ الرُّشد، الرياض.

٧. الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، حققه: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤ م، دار الكتب المصرية - القاهرة.

٨. الجامع الكبير: لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك،

أبو عيسى الترمذي، حققه: بشار عواد معروف، طبعة ١٩٩٨ م، دار الغرب الإسلامي - بيروت.

٩. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه: لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.

١٠. زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض

١٢. السنن: لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، حققه: شعَيب الأرناؤوط - محَمَّد كامِل قره، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩ م، دار الرسالة العالمية.

١٣. السنن الكبرى: لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، حققه: حسن عبدالمنعم شلبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٤. السنن: لأبي عبدالله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، حققه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية.

١٥. شرح صحيح البخارى: لعلي بن خلف بن عبدالملك ابن بطال، حققه: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، مكتبة الرشد، الرياض.

١٦. شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي، حققه: الدكتور عبدالعلي عبدالحميد حامد، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ-

٢٠٠٣م، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض.
١٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، حققه: أحمد عبدالغفور عطار، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، دار العلم للملايين -بيروت.
١٨. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الصديق.
١٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لمحمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٠. عون المعبود شرح سنن أبي داود: لمحمد أشرف بن أمير بن علي، العظيم آبادي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية -بيروت.
٢١. غريب الحديث، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، حققه: د. عبدالله الجبوري، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ، مطبعة العاني -بغداد.
٢٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة: ١٣٧٩هـ، دار المعرفة -بيروت.
٢٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي المناوي، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ، المكتبة التجارية الكبرى- مصر.
٢٤. الكاشف عن حقائق السنن: لشرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي، حققه: د. عبدالحميد، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض).
٢٥. لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن علي، ابن منظور الأنصاري، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ، دار صادر -بيروت.
٢٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، حققه: حسام الدين القدسي، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ،

١٩٩٤م، مكتبة القدسي، القاهرة.
٢٧. مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، حققه: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.
٢٨. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لمحمد بن محمد ابن عبدالكريم، ابن الموصلي، حققه: سيد إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الحديث، القاهرة.
٢٩. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لعلي بن محمد، أبو الحسن الملا القاري، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، دار الفكر، بيروت-لبنان.
٣٠. المسند: لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، حققه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة - بيروت.
٣١. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري، حققه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٣٢. المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد، أبو القاسم الطبراني، حققه: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية -القاهرة.
٣٣. المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، حققه: صفوان عدنان الداوودي، الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ، دار القلم، الدار الشامية -دمشق بيروت.
٣٤. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، حققه: محمد رشاد سالم، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٣٥. النبوات: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، حققه: عبدالعزيز بن صالح الطويان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، أضواء السلف، الرياض.
٣٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، للمبارك بن محمد ابن الأثير الجزري، حققه: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، المكتبة العلمية -بيروت.